وجوه التواصل الذاتي وعناصره عند ابن وهب *

من خلال كتابه البرهان في وجوه البيان

الأستاذ:سليم حمدان
جامعة الحاج لخضر – باتنة

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى الوقوف على معنى التواصل عند البلاغيين العرب قديما من خلال تعريفهم للغة،مع التركيز على التواصل الذاتي عند ابن وهب من خلال العناصر التي حددها هذا البلاغي بدقة علمية،وإن كان قد اعتمد في ذلك – أحيانا – على التحليل المنطقي أكثر من البلاغي.
ومن هنا كان هذا المقال إجابة عن سؤالين هما:
- ما التواصل الذاتي،وما مفهومه في التراث البلاغي العربي ؟
- ماهي وجوه التواصل الذاتي عند ابن وهب ؟

Abstract
This article aims to identify the meaning of connecting at ancient Arabs rhetorical works by their Definition of the language, with an emphasis on self-communication as it showed by IBN WAHB through the elements that were identified by this rhetorical scientist in very precise approach,
although he has relied – sometimes - on the logical analysis more than the rhetorical one..Hence, this article is to be an answer to two questions
-What is self-communication? And what does it mean understood in the Arab
-What are the forms of self-communication in the conception of IBN WAHB?

توطـــئة:

يُعدُّ التواصل من أهم وظائف اللغة إذ « الاتصال هو العملية الاجتماعية التي تتم بين أعضاء الجماعة أو المجتمع لتبادل المعلومات والآراء والأفكار والمعاني لتحقيق أهداف معينة »[1] فالإنسان يكون بذلك قد أودع في اللغة عالمه الخاص بكل صدق، فاللغة عبارة عن قدرات ذهنية تمكّن الإنسان من التواصل والتعامل والتفاعل مع محيطه ومجتمعه، ولكن قبل أن يحدث ذلك – أي تواصل المرء مع الآخرين- هل يحدِّثُ الإنسان نفسه؟ أو بالأحرى هل يحدث التواصل بين الإنسان وذاته؟ وفيم يتمثل ذلك عند ابن وهب

- مفهوم التواصل الذاتي وعناصره:

أ/ مفهومه: من بين تعاريف اللغة: « أنها قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد المجتمع »[2]، فهي إذن قبل أن تكون منطوقة ويتواصل بها أفراد المجتمع، هي قدرة ذهنية، حيث يعتبر تعريف ابن جني من بين أدق تعريفات اللغة على الإطلاق، إذ « يشتمل (...) أربع قضايا جوهرية هي: الأصوات

والوظيفة والطابع الاجتماعي للغة، والطابع النفسي »[3] وفي تركيزنا على الطابع النفسي نجد أن الإنسان لا يطلق أصواتًا يعبِّر بها عن أفكاره، إلاّ إذا أحدثها في نفسه أوّلاً، وبذلك قد تواصل مع نفسه، قبل أن يتواصل مع الآخرين، وكما يقول كيسلر:« إن التفكير ليس سوى الحركات اللاشعورية الصوتية، و أنه نوع من الهمس غير المسموع الذي يدور بين المرء ونفسه»[4] فالإنسان في تفكيره، بل حتى في تواصله مع الآخرين، أو عندما يحدث نفسه، يكون قد أحدث اتصالاً ذاتيًا، هو المتكلم فيه والسامع في آن واحد، ولفهم الاتصال الذاتي أكثر نستطيع الاستفادة من نموذج (بارلند) الذي يوضحه في الشكل التالي:

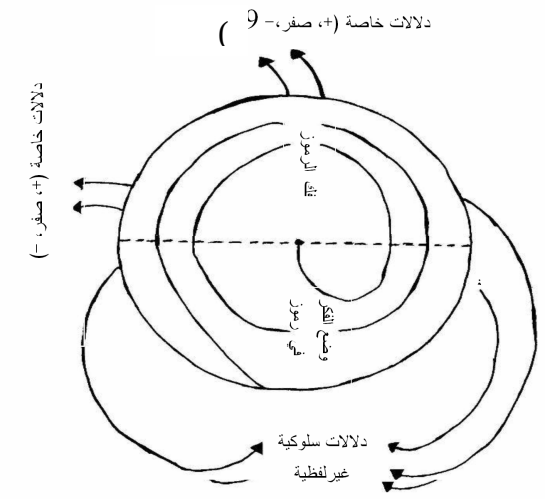

نموذج بارلند للتواصل الذاتي5

يتضح في هذا الشكل النظام التواصلي الذي يبدأ من فك الرموز عن طريق الاستجابة للدلالات المادية والسيكولوجية عند الآخرين، ليحدث بذلك اتصالاً ذاتيا بين الفرد وذاته عن طريق هذه الاستجابة، وقد يكون ذلك عن طريق إدراك الذات، « ونشير فقط إلى أنّ إدراك الذات يتم على أساس تصوُّر وجود الغير »[6]،وهذا الإدراك يولِّد في نفس المرء صراعًا بين « القيم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية والفلسفية (...) من جهة، وبين الرغبات والميول والأحاسيس والغرائز (...) من جهة أخرى، إن الحديث في هذا الإطار يتمحور حول الصراع بين (الأنا الأعلى)، الذي يشكل الطرف الأوّل من الحوار الداخلي،و(الهو) الذي يشكل الطرف الثاني –على حد التعبير الفرويدي- وكل هذا النشاط يتحول – حسب باختين- إلى جدال بين متكلم خفي ومخاطب خفي أيضًا »[7]،وهذا الجدال الذي يحدث داخل النفس، ما هو إلاّ حوارٌ داخليّ (مونولوج) أو حديثٌ نفسي، يتم من خلال الحالات النفسية التي تنتاب الإنسان، كالقلق والتشاؤم والتفاؤل، وغير ذلك من هذه الحالات فالمونولوج إذن هو « حوار تستعمل فيه العديد من تقنيات الحوار العادي (...) فهو - كما يقول باختين– يصاغ

على شكل حوار، وما أدلّ على ذلك من القلق الذي يصيب الشخص حينما يهمُّ باتخاذ قرار خطير في حياته، إذ تسيطر عليه الحيرة »[8].فالاتصال الذاتي من خلال ما سبق « هو عملية تتفاعل وتأخذ مكانها داخل المرء، فهي إذن عملية شخصية بحتة تتم فيها مخاطبة الإنسان لذاته »[9] وهذا الاتصال لا يكون مجرد اتصال عادي إنما يتأتى عن طريق الشعور والوعي والفكر والوجدان وعدد من العمليات النفسية الداخلية[10]التي تجعل المرء يحاور نفسه ويخاطبها.

ويتحسس إميل بنفينيست هذه العملية بقوله: « يتشكل الإنسان من حيث هو ذات في اللغة وباللغة، إذ هي وحدها تؤسس في حقيقة الأمر مفهوم (الأنا) ضمن واقعها الذي هو واقع الوجود »[11] فالإنسان إذن يحدد ذاته في اللغة عن طريق اللغة ذاتها، ومن هنا يتأسس مفهوم (الأنا) ضمن واقع الوجود عند بنفينيست، ويضيف: « إن الذاتية التي نبحث فيها هي قدرة المتكلم على أن يطرح نفسه بوصفه (ذاتًا)، وهي تعرف لا بوساطة الشعورالذي يعيشه كل واحد منا بأنه هو نفسه، بل تعرف باعتبارها الوحدة النفسية التي تتعالى على كلية التجارب المعيشة، التي تجمعها هذه الوحدة النفسية وتضمن دواعي الوعي »12، وهنا يطرح بنفينيست إشكالية جديدة، وهي أن قدرة المتكلم تظهر أولاً في ذاتيته، فالمتكلم عند بنفينيست ينطلق من الحوار الداخلي وهو يتحسس ذاته قبل أن يصدر ما يفكر فيه في شكل أصوات إلى ساحة الشعور. وبذلك يمكننا أن نقول بأن المتكلم (أ)، يحاور ذاته عبر عملية الحوار الداخلي التي تسلك مسارين، (م) الذي يكون بداية الحوار، و(مَ) الذي يعبِّر عن الردّ أو الاستجابة سواءً أكانت إيجابية أم سلبية، ويكون ذلك على النحو التالي:

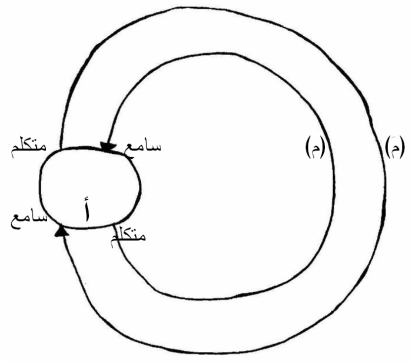

رسم يوضح عملية الحوار الداخلي

ب/ عناصره:ليس الحوار الداخلي ببعيد عن الخارجي، فإذا كان الثاني يستوجب طرفين (مخاطِب/ مخاطَب) مختلفين، فإن الأول يستوجب كذلك الطرفين نفسهما، لكن لا يكونا خارجيين، فالإنسان يشكل في ذاته داخليا الطرفين معًا،حيث يرى ابن سان الخفاجي «أن الإنسان يفعل كلامًا خفيًّا في داخل صدره، ويقطعه بالنفس فيكون كلامًا بالحقيقة وإن كان غير مسموع ثم إن أحدنا قد يحدث نفسه بنسيج ثوب أو بناء دار »[13]، وهكذا نكون قد أقمنا التواصل بجميع عناصره في نفوسنا، وهذا التواصل هو عبارة عن استجابة للواقع الذي حددنا له موقعًا في أنفسنا فحينما « يلجأ الإنسان إلى

إجراء حوار داخل نفسه، يكون قد أقام جسور التواصل في ذاته، باعتبار ذلك صورة من التواصل على أرض الواقع »[14]، وفي هذا النوع من التواصل نجد أن الإنسان يقيم التواصل بين متكلم وسامع في نفسه إذ يكون المتكلم طرفًا فيه من جانب، وأطرافه كلها من جانب آخر. فنحن طرف من حيث أن هذا الحوار يكون بيننا وبين غيرنا على أساس أننا نخاطب الآخر، وإن كان في داخلنا، ونعتبر أيضا أطرافه كلها لأن هذا الحوار يقام في داخلنا.ومنه فالإنسان يقيم الحوار في نفسه داخليًا، قبل أن يصدر منه في أصوات مسموعة، حيث أن « الصوت المسموع طريق إلى إثبات الكلام القائم في النفس»[15]

فالمتكلم لا يتكلم في قضية مثبتًا أو نافيًا أو غير ذلك، حتَّى يقيمها في نفسه أوّلاً ويناقشها، ويختار اللفظ المعبر عنها، وبذلك فإن كل صوت هو نتيجة لكلام في النفس.حيث يجد كل عاقل « في نفسه عند الكلام أمرًا يضايقه، ويدبر في نفسه ما يريد أن يتكلم به، حتى يخطب الخطبة، وينشد القصيدة، من غير أن يحرك من ذلك جارحة بحال من الأحوال، وذلك يبين أن الكلام معنًى قائم في النفس »[16]، فالواحد منا لا ينطق ببنت شفة إلاّ بعد أخذٍ وردٍّ في نفسه، وليس أدلّ على ذلك من أن الرّجل لا ينطق أمام غيره إلاّ إذا فكر ما إذا كان كلامه يليق بالمكان و بالمخاطب ومقامه أم لا، وهذا الكلام « ليس يخلو من أن يكون طريقًا إليه، يُعلم عنده أو يستدل به عليه، فإن كان الأول وجب أن يعلم كل من سمع الكلام الذي هو الصوت الواقع على بعض الوجوه شيئًا آخر عنده، ومعلوم خلاف ذلك، وإن كان يستدل به عليه فالكلام المسموع إنما يدل على ما لولاه لما حدث – وهو القدره- أو ما لولاه لم يقع على بعض الوجوه، وهو العلم والإرادة »[17]فالصوت المسموع عند ابن سنان ما هو إلا صدًى لما يقع في النفس من أفكار، ومن خلاله يُعلم، أو يستدل به عليه، فإن استدل به فإنه يدل على قدرة المتكلم أو يدل على العلم والإرادة.

فإذا كان الإنسان يقيم التواصل مع نفسه فهو حينئذٍ (متكلم/ وسامع) وذلك على اعتبار وجود سامع افتراضي، يكون هو ذاته المتكلم أو في نفس المتكلم وهناك موضوع يناقشه يمثل الرسالة، في حين أن الشفرة هنا تكون واضحة على أساس أن المتكلم هو نفسه السامع، ومنه فالتواصل الذاتي يقوم على عناصر أربعة هي: (متكلم/ سامع/ رسالة/ شفرة)

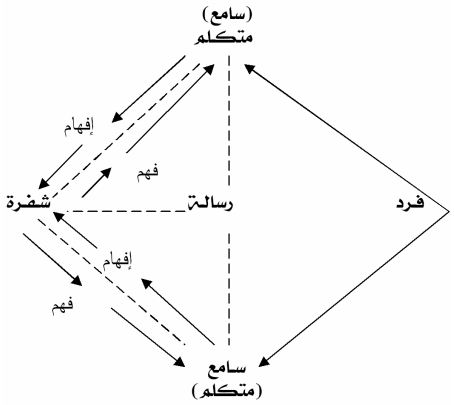

مخطط يوضح عناصر التواصل الذاتي

من خلال ما سبق يتضح أن الإنسان يقوم في نفسه بعدة عمليات نفسية تتمثل – في كثير من الأحيان- في التفكّر والتأمُّل أو ما يسميه ابن وهب (الاعتبار) وهو (النصبة) عند الجاحظ أو عن طريق مناقشة الإنسان مع ذاته كل ما هو في محيطه الخارجي ليتحول هذا (الاعتبار)* إلى معرفة وعلم وهو ما سمّاه ابن وهب أيضًا (لاعتقاد) وقد يكون فيالإنصات وحسن الإصغاء، فنحن « في أغلب الأحيان ننصت إلى محدثنا، ونحن نفكّر في الرّدّ عليه أو ما يمكن أن نضيفه إلى ما قاله »[18]

- وجوه التواصل الذاتي عند ابن وهب:

أ- الاعتبار*: يعد الاعتبار من أهم مستويات التواصل الذاتي، وهو الذي تبين فيه الأشياء « لمن تبين، وتعبّر بمعانيها لمن اعتبر »[19] وذلك لمن طلب الاعتبار مما يرى من خلق الله جلّ وعلا، فـ « الأشياء تبيِّن للناظر المتوسم، والعاقل المتبيِّن بذواتها، وبعجيب تركيب الله فيها وآثار صفته في ظاهرها، كما قال تعالى:(وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(العنكبوت 35)

والاعتبار عند ابن وهب إمّا ظاهر، وإما باطن، إذ يقول: « إن الظاهر من ذلك ما أدرك بالحس كتبيننا حرارة النار وبرودة الثلج على الملاقاة بهما، أو ما أدرك بنظرة العقل التي تتساوي العقول فيها مثل تبيننا أن الزوج خلاف الفرد، وأن الكل أكثر من الجزء، والباطن ما غاب عن الحسِّي، واختلفت العقول في إثباته فالظاهر مستغنٍ بظهوره عن الاستدلال عليه والاحتجاج له، لأنه لا خلاف فيه، والباطن هو المحتاج إلى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال، ويعتبر بوجوه المقاييس والأشكال»[21]

فالظاهر - عند ابن وهب– قسمان، إمّا مدرك بالحس كالفرق بين السماء الصافية والغائمة، وهذا يدرك بحاسة النظر، وهناك ما يدرك بحواس أخرى أو ما أدرك بالعقل - فيما تتساوى فيه العقول- من الأشياء البسيطة الظاهرة للجميع كالزوج خلاف الفرد، وقس على ذلك، وهذا ما لا يحتاج إلى دليل وحجة، أمّا الباطن– وهو الأهم عند ابن وهب- لأنه الذي تختلف فيه العقول، ويحتاج إلى دليل وبرهان، وهذه الحال ليست معبِّرة لأيٍّ كان من البشر،«إنما تعبِّر(...)لمن اعتبر بها وتبين لمن طلب البيان منها، ولذلك جعل الله عز وجل الآية فيها لمن توسَّم وتفكّر وعقل وتذكّر فقال (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)(الحجر 75) و (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ♦) (الرعد 3) و (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد 4) و (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (النمل 13) فهذا وجه بيان الأشياء بذواتها لمن اعتبر بها وطلب البيان منها،فإذا حصل هذا للمتفكر صار عالمًا بمعاني الأشياء»[22] ،ولا يتأتى ذلك إلاّ لعاقل لبيب لقوله تعالى:(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ) [23]والاعتبار عند ابن وهب هو ما يسميه الجاحظ (النَّصبة) وهي « الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونامٍ ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق »[24]، وهنا نجد اتفاق الرجلين في معنى (الاعتبار والنصبة) رغم اختلافهما في التسمية، فكل صامت ناطق بدلالته، فإذا كان الحيوان الناطق دليلاً على عظمة الله، فإن الجامد كذلك دليل على عظمته وقدرته عز وجل، « لذلك قال الأوّل: سل الأرض، فقل: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا »[25] فالأرض الجامدة الصامتة عندما يقف أمامها العاقل معتبرًا متدبرًا في خلق الله، تنطق بخالقها وبمن أجرى الماء فوقها وتحتها وأخرج من باطنها ثمرًا

تأكل الطير منه، ويتفق الإمام أبو الطاهر إسماعيل التجيني، - وهو يشرح كتاب ظاءات القرآن لأبي العباس المقرئ- مع ما جاء به الجاحظ وابن وهب، إذ يقول: « فالدلالة بالنصبة القائمة في خلق الأرضين والسموات وسائر الجمادات والحيوانات، كالدلالة المسموعة من العقلاء والناطقين والفصحاء المتكلمين بأبين البيان، بل النصبة أصدق إعلامًا وأرقُّ إفهامًا وأنصح وعظًا وأفصح لفظًا »[26] ، فالنصبة/ الاعتبار في دلالتها قد تكون أصدق وأفصح وأوضح مما يقوله ناطق عاقل واعظ فصيح، فمن خلالها يأخذ الإنسان العبرة، ويقيم عدة تساؤلات في نفسه يخرج منها بنتيجة بيِّنة وحقيقة ثابتة، ويكون بذلك قد أظهر هذا الأمر وهذه الحقيقة التي وصل إليها عن قناعة وتدبُّر، وطلب للاعتبار، وهذا ما نجده في قوله تعالى، في تحديده أنّ المخلوقات الساكنة قد خلقت آية للعاقلين المتدبرين من البشر (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَتِ وَ الْأَرْضِ واخْتِلَافِ اللَّيْلِ و النَّهَارِ والْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ومَآ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ و الْأَرْضِ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[27] فهذه المخلوقات التي ذكرها تعالى كلها دالة على قدرته وناطقة من جهة الدلالة بغير لفظ ولا إشارة، وشاهدة لخالقها بالربوبية، لذلك قال بعض الحكماء: « أشهد أن السماوات والأرض، آيات دالات وشواهد قائمات كُلٌ يؤدي عنك الحجة، ويشهد لك بالربوبية »[28]

ويؤكد ذلك قول علي بن الحسين بن علي، حينما يقول، « لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في صواب التبيين، لأعربوا عن كل ما يختلج في صدورهم، ولوجدوا من بَرْدِ اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم »[29]

وهذا مما يدل على أن الحال مبنية لذاتها دون نطق أو إشارة، إنما هي ناطقة بدلالتها.

وقال الشاعر يستنطق ما لا ينطق:

فأجهشت للتوباد حين رأيته ⁂ وكبَّر للرحمن حين رآني

فقلت له: أين الذين عهدتهم ⁂ حواليك في عيش وخير زمان

فقال: مضوا واستودعوني ديارهم ⁂ ومن ذا الذي يبقى على الحدثان؟![30]

فالشاعر قد سأل جامدًا لا يجيب، وأجاب عنه، وهو هنا إنما أجاب بحاله الظاهرة والمظهرة لبيانه، وقد اعتادت العرب ذلك في استنطاق الطلل حين يسألونه عن الأحبة الراحلين أو الأيام الخوالي.

ويذهب المحدثون إلى ما ذهب إليه صاحب البرهان ومنهم (بروكز) و(ويزمان) حيث ذهبا إلى « أن الكائن الحي يتأثر بمنبهات داخلية سيكولوجية، وفزيولوجية ومنبهات خارجية موجودة في محيطه، يتلقاها الفرد في شكل نبضات عصبية تنتقل إلى العقل الذي ينتقي منها، ويفكر فيها، ويتخذ قراره وفقًا لعملية تمييز تليها عملية إعادة تجميع للتنبيهات التي تمّ اختيارها في مرحلة التمييز، ثم تركيب تلك المنبهات في شكل خاص له معنى عند الفرد القائم بالاتصال »[31]

وهكذا فإن الاعتبار يكون عن طريق تأثر الفرد بمنبهات داخلية نفسية، وأخرى خارجية من محيطه، ليصل بها إلى مرحلة التفكير والتفكُّر والتدبُّر، ولا يصل إلى المعاني إلاّ بعد عدة عمليات سريعة كالتمييز ، وتجميع تلك المنبهات وترتيبها في شكل يوصله إلى المعنى.

ثم يذهب ابن وهب إلى أن هذه العملية تتم عبر طرق هي:

1/ **القياس**: وهو نتيجة لمقدمة أو مقدمات، وعند ابن وهب « ليس يجب القياس إلا عن قول يتقدم، فيكون القياس نتيجة كقولنا: إذا كان الحي حسّاسًا متحركًا، فالإنسان حي »[32] وحجته في ذلك قوله تعالى : (فاعْتَبِرُواْ يأُلِي الْأَبْصَارِ)[33]

وكأننا بهذا البلاغي يوظف المنطق الأرسطي، بوصوله إلى نتائج عن طريق مقدمات:

- كل حيٍّ حسّاس متحرك - مقدمة كبرى
- الإنسان حساس متحرك - مقدمة صغرى

- الإنسان حي - نتيجة

ويستلزم القياس الوصول إلى أشياء قطعية تكون نتيجة لتلك المقدمات، كما هو ممثل في القضية السابقة، ونتائج القياس ثلاثة هي:

أ- **البرهان**: وهو الصادر عن مسلمة لا خلاف فيها.

ب- **الإقناع**: وهو الصادر عن قول مشهور فيه اختلاف، يحتاج إلى إقناع.

ج- **الباطل**: وهو الصادر عن قول كاذب.[34]

د- وما يدل على الأشياء أربعة حسب ابن وهب وهي:

أ- **المشاكلة**: وهي التشبيه، والتمثيل، إذ يقول ابن وهب: « وهما، (يقصد التشبيه والتمثيل) يقعان بين الأشياء في بعض معانيها، ولأنه ليس يجوز أن يشبه شيءٌ شيئًا في جميع صفاته، فيكون غيره »[35] ، فعندما نقول (زيد أسد)، فزيد هنا يشبه الأسد في بعض الأشياء، ولا يطابقه، فلو طابقه لكانا شيئًا واحدًا.

ب- **المضادة**: إذ الضدُّ يعرف بالضّدّ – كما تقول العرب- « فإننا إذا عرفنا الحياة، وعلمنا أنها بالحس والحركة، عرفنا ضدّها الذي هو الموت وأنه بعد الحس والحركة »[36] بحيث أننا قد نكون نعرف الشيء، ولا نعلم صفاته، إلاّ إذا تحققنا من صفات نقيضه، وفي هذه الحال، لا نحتاج إلى من يعرفنا بها وإنما نقيضها دَلَّ عليها.

ج- **العرض**: ويقصد به الهيئة، أي هيئة الشيء في شكله، وطوله وارتفاعه وغير ذلك مما يحدد ملامحه ويوصف به[37] ، بمعنى إعطاء الأوصاف جميعها للشيء المراد توضيحه أو المتكلِّم عنه.

د- **الفعل**: كدلالة الشيء على فعله، فباب الخشب يدل على وجود فعل النجارة والزرع دال على وجود الزراعة، وغير ذلك من الأشياء الدالة على أفعالها.

وكما تقول العرب (الأثر يدل على المسير).

2/ **الخبر**: وهو الوسيلة الثانية التي يحصل بها العلم، فإذا كانت أوجه النشاط في التواصل الذاتي تتفاعل متأثرة بوجهة نظر القائم بالاتصال في الحياة، فهي تتوسل بالخبر كما

تتوسل بالقياس[38]، وحجة ابن وهب في ذلك قوله تعالى: (فَسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)[39] وفي الخبر يعتمد الإنسان على صحة ما ينقل من كلام العلماء والفقهاء وغيرهم، ممن يوثق بهم، وذلك مما لا سبيل للعقل فيه.

والخبر قسمان، يقين وتصديق:

أ- **اليقين**: وهو الذي نتحقق من صحته في ذاته، وصحة نسبته إلى صاحبه وهو « سكون النفس، وثلج الصدر بما علم (...) واليقين ما يزيل الشكّ دون غيره من أضداد العلوم »[40]. وهو ثلاثة أقسام:

- الخبر المتواتر، الذي تنقله جماعات متباينة، جماعة عن جماعة فلا يتواطؤوا فيه، فالله جلّ ذكره ألزمنا بالايمان بحجج الأنبياء والرسل، ومعجزاتهم، رغم أننا لم نشاهدهم أو نعايشهم وذلك لتواتر أخبارهم.
- خبر الأنبياء والرسل ومن كان في زمرة الأئمة.
- الأخبار المتواترة عن الخاصة كالعلماء مثلا.[41]
واليقين عمومًا هو ما تعترف العقول بصحته والإقرار به.
ب- التصديق: وهو الخبر المعلوم من جهة الآحاد، ولم تتواتره الألسن، وهو ما تقتنع به النفوس.
3/ الظن: «وقد يستنبط باطن الأشياء بوجه ثالث، وهو الظن والتخمين وذلك فيما لا يوصل إليه بالقياس ولا يتأتى فيه خبر»[42] والظن حق وباطل: فالحق ما وصلنا به إلى نتيجة بعد طول تخمين وتفكير ورويّة وإن لم نصل به إلى نتيجة فهو باطل والظنّ هنا ليس مجرد حديث يدور في نفس الإنسان ليصل به إلى حكم غير مؤسس، و إنما هو سبيل للقطع والجزم والتثبيت، وفي ذلك يقول ابن وهب: « فإذا أردت أن يصدق ظنُّك فيما تطلبه بالظنّ، مما لا تصل إلى معرفته بقياس أو خبر، فاقسم الشيء الذي يقع فيه ظنُّك إلى سائر أقسامه في العقل، وأعطِ كل قسم حقه في التأمل، فإذا اتجه لك أن الحق في بعض ذلك على أكبرِ الظن (...) جزمت عليه، وأوقعت الوهم على صحته »[43]
والظن هنا ما هو إلاّ حوارًا داخليا يقيمة المرء في نفسه وبعد أخذ وردٍّ يصل به إلى اليقين، كما أن تظن بإنسان عداوته لك، ولم يتبين لك ذلك في ملامح وجهه أو كلامه أو تصرفه، فتحصر الأشياء التي توقع العداوة بين المتعادين، كالشركة والمنازعة والميراث ...إلخ ثم تنظر إن اجتمعت بينكما، أو أكثرها أوقعت الوهم على أنه لك عدو، وإن وجدته ينفرد ببعضها فقط، ذهبت في النظر إلى ما يوجب اللطف والمودة بينكما من معاملة سابقة، وإحسان متقدم ... ثم وازنت بين الخلال الموجبة للعداوة، والخلال الموجبة للصداقة، وتحيزت إلى الأقوى من الصنفين، فإن لم تجد بينكما ما يوجب العداوة، أزلت عن قلبك الظن.[44] والظن هنا هو بداية التخمين للوصول إلى اليقين، فإن لم نصل إليه بقي ظنًّا. ويؤكد صاحب البرهان، إمكانية الوصول إلى اليقين من خلال الظن قائلاً: « وكل هذه الأحوال (...) إنما تقع أوائلها بالظن فإن شهد لها ما يخرجها إلى اليقين صارت يقينًا وإلاّ كانت تهمة وظنّة وإثما »[45]
وهكذا فإن ابن وهب قد حدد ما تبين عنه الأشياء بذواتها. والوصول إلى باطنها في التواصل الذاتي، الذي يقوم على القياس الذي نصل إلى نتائجه عن طريق المقدمات، أو خبر حسب رتبته، سواءً أكان يقينا، حكم العقل بصحته وأقرّ به بعد تدبر وتفكر، أم تصديقًا، اقتنعت به النفس وصدقت بعد ارتياح وطمأنينة، فإن لم يكن هذا ولا ذاك لجأنا إلى الظن الذي هو سبيل اليقين.
وهذه الوسائل الثلاث(اليقين/ التصديق/ الظن)لا يمكن أن تتجاوز إحداهما الأخرى إلاّ إذا فقدت،ويؤكد ذلك ابن وهب بقوله:«وطلبوا في الأشياء اليقين، فإن وجدوه تركوا غيره، فإذا عدموه طلبوا الإقناع الذي به التصديق، فإن وجدوه أخذوا به،وإن لم يجدوه أعملوا الظن»[46]حتى يصل الإنسان إلى ما يحتاج إليه.
من خلال ما سبق، يتبين لنا أن ابن وهب قد ركز في عنصر الاعتبار، على الباطن، الذي يتم فيه التواصل الذاتي من خلال العمليات النفسية، التي تتم في ذات الفرد، فيكون متكلمًا وسامعًا، مصدقًا ورافضًا ،مقنِعًا ومقنَعًا...إلخ في آن معًا ،وعلى سبيل تصور مخاطبه الآخر، في حين نجد أن الجاحظ، فيما سمّاه بالنصبة، لم يهمل الظاهر كذلك الذي يدرك بالحسّ أو العقل،وإنما انطلق منه للباطن، وهو يورد قول أحد

الخطباء حين وقوفه على سرير الاسكندر،وهو ميت إذ قال:«الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ،وهو اليوم أوعظ منه أمس»[47]

ب- الاعتقاد: رأينا أن الاعتبار هو بيان الأشياء بذواتها، لمن اعتبر بها، « فإذا حصل هذا البيان للمتفكر، صار عالمًا بمعاني الأشياء، وكان ما يعتقد من ذلك بيانًا ثانيا غير ذلك البيان، وخصّ باسم الاعتقاد »[48].فالاعتقاد إذن مرتبط ارتباطًا وثيقًا بعنصر الاعتبار، إذ « يشكل مع بيان الاعتبار ما يحدث في عقل المرسل والمستقبل »[49]

ومنه فالتواصل الذاتي يضم وجهين من أوجه البيان عند ابن وهب، فإذا بيَّنت الأشياء بذواتها للعقل الإنساني، فقد صارت علمًا بالنسبة إليه، لذلك قسم ابن وهب هذا البيان إلى ثلاثة أضرب، فمنه « حق، لا شبهة فيه، ومنه علم مشتبه يحتاج إلى تقوية بالاحتجاج فيه، ومنه باطل لا شك فيه »[50]

ويوافق المحدثون ما جاء به صاحب البرهان، حيث يرون بأن التواصل الذاتي يتضمن الأنماط التي تتشكل في ذات الفرد ويطورها في عملية الإدراك، أي عن طريق الملاحظة والتقويم، وإضفاء معنى على الأفكار والأشياء الخارجية[51]. وهكذا فإن الإنسان عبارة عن نظام اتصالي، يفك عدّة رموز في مجال الإدراك، وذلك بتحويل الأشياء التي يميزها في عالمه الخارجي إلى دلالات تظهر لغيره.

وتجمل أضرب بيان الاعتقاد في:

أ- حق لا شبهة فيه/ يقين: وطريقته العقل، وذلك عن طريق مقدمات قطعية، مثل: الكل أكبر من الجزء والكل ضعف النصف، أو مقدمات ظاهرة على وجه الإنسان، وجرت المواضعة فيها على دلالتها، كما ورد في حديث أبي بكر، حين عهد لعمر (رضي الله عنهما) بالخلافة، قال: « كلكم ورم أنفه أي اغتاظ، لأن المغتاظ يرم أنفه ويحمر، فقد عبر أصدق تعبير وأكثره لباقة، عمّا أصاب الحاضرين من حسد وغيره، عن طريق ما علت أنوفهم من احمرار، (...) وهي لفظة إشارية تحكي الواقع بصدق ويقين »[52]، ومن ذلك أيضًا احمرار الوجه عند الخجل وبياض الشفتين دليل العطش، وهذا كله تواضع من الملاحظة، أو مقدمات المرض، أي الحالات الدالة على مرض عضوي معين، ككثرة العطس دليل على بداية الزكام، وإمَّا المسلمات التي لا تحتاج إلى حجة أو برهان، و إمَّا الخبر المتواتر من الخاصة أو الأنبياء والرسل، كوحدانية الله عز وجل وربوبيته، « وكل هذا يوجب العلم »[53] والحجة القائمة في ذلك هي البرهان.

ب- ما يشتبه فيه: وهو ما يحتاج إلى التثبيت والاحتجاج، وطريقته خبر الآحاد، وهو الذي ينفرد به شخص واحد دون غيره ولم تظهر فيه مقدمات قطعية، توجب العلم به، وقد تكون طريقته الظن فيما لا يتقبله العقل للوهلة الأولى، إنما يستحسن الاستدلال عليه وإقامة الحجة له، « وكل ظنٌّ قويت شواهده، وكان الاحتياط في الرأي والدين تغلبه، وكل هذه الأمور التي عددناها، فإنما يأتي العلم بها على التصديق لا على اليقين والحجة على معنى الإقناع، لا البرهان وهي توجب العمل ولا توجب العلم »[54] وذلك كذكر بطولات السابقين وما أقاموا من عدل بينهم، فهذا يوجب العمل من باب الإئتساء بهم.

ج- باطل: وهو الذي يردُّ بلا شبهة، وطريقته تكون المقدمات الكاذبة التي تنبئ منذ البداية عن نتيجة باطلة، وقد تكون أخبار الكذابين الذين اشتهروا بهذه الصفة، فلا يؤخذ من كلامهم يقين،لذلك قالت العرب قديمًا:(ما بني على باطل فهو باطل)، وهذا ما يستلزم الرّدّ والرفض. وهكذا يتضح أن الدّلالات، تكون عامة متعارف عليها كالمسلمات مثلاً، أو خاصة، بل قد تكون لفظية أو غير لفظية، وأنّ وجهي البيان عند

ابن وهب (الاعتبار/ الاعتقاد) يعتبران وجهيْ التواصل الذاتي بالمصطلح الحديث، وهما يكشفان عن الطريقة التي يتصل بها الإنسان مع ذاته وينفرد بها وحده، كما يتضح من خلال ما سبق بأن نموذج الاتصال الذي قدّمه بارلند يتفق مع ما جاء به ابن وهب (الاعتبار والاعتقاد) من حيث أهمية الدلالات المتنوعة التي تضع التأثيرات الداخلية والخارجية.

وخلاصة ما سبق أن التواصل الذاتي عند ابن وهب يقوم على الاعتبار أو ما سماه الجاحظ بالنصبة، وقد ركز فيه على الباطن أكثر من الظاهر، كما يقوم على الاعتقاد أيضا، وهو الذي يحصل بعد الاعتبار فيصير المرء عالمًا بمعاني الأشياء.

الهوامش:

1 / أحمد محمد معتوق –الحصيلة اللغوية- سلسلة عالم المعرفة – دط- 1996ص 29

2 / عمر مهيل– إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة - منشورات الاختلاف- ط1- 2005ص 31

3 / محمد بوعمامة – اللغة والفكر والمعنى- مجلة البحوث والدراسات الجامعية .المركز الجامعي بالوادي- عدد4- يناير 2007.ص237

4 / أحمد محمد معتوق – الحصيلة اللغوية ص 31.

5 / عبد العزيز شرف– علم الإعلام اللغوي- الشركة المصرية العالمية للنشر (لوجمان)- ط1- 200ص 16

6 / عمر بلخير – تحليل الخطاب المسرحي- منشورات الاختلاف – ط1- 2003ص59

7 / نفسه ص 59.

8 / نفسه ص 59.

9 / راشد علي عيسى – مهارات الاتصال- كتاب الأمّة- عدد 103-ط1-2004.ص 42

10 / ينظر عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 11.

11 / عمر مهيبل – إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة- ص 31.

12 / نفسه ص 31.

13 / ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة- دار الكتب العلمية (لبنان)- ط1- 1982. 13- دار الكتب العلمية (لبنان)- ط1- 1982ص 41

14 / سمير شريف استيتية – اللسانيات التواصلية والمجتمع- اللسانيات (المجال – الوظيفة – المنهج)- عالم الكتب الحديث – ط1- 2005ص 09

15 / ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة- ص 41.

16 / نفسه.ص نفسها

17 / نفسه ص نفسها

18 / جان كلود مارتان –ما التواصل- تر:سعيدبنكراد.مجلةعلامات.ع 24 ص49

19 /ابن وهب– البرهان في وحوه البيان- تقديم وتحقيق: محمد شرف-مطبعة الرسالة-دط- دت ص 65

20 / عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 11.

21 / ابن وهب .البرهان ص 65.

22 / عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 12.

23 / سورة الرعد..الآية 19

24 / الجاحظ – البيان والتبيين- تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون –دار الفكر- ط 2- د ت .ج1، ص 81.

25 / نفسه، ج1، ص 81.

26 / أبو العباس المقري –كتاب ظاءات القرآن نقلا عن: بلقاسم حمام –آليات التواصل في الخطاب القرآني ص 61.

27 / البقرة 164.

28 / الجاحظ - البيان والتبيين- ج1/81

29 / نفسه ج1/84

30 / ابن وهب – البرهان- ص 57.
31 / عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 13.
32 ابن وهب – البرهان- ص 68.
33 / الحشر 02.
34 / ينظر بلقاسم حمام – آليات التواصل في الخطاب القرآني-أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه- جامعة الحاج لخضر- باتنة (الجزائر) 2005ص 82
35 / ابن وهب – البرهان- ص 67.
36 / نفسه ص 71 .
37 / ينظر بالقاسم حمام – آليات التواصل في الخطاب القرآني- 82
38 / ينظر عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 15.
39 / الأنبياء 07.
40 / أبو هلال العسكري – الفروق في اللغة- تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة- دار الآفاق الجديدة (بيروت)- ط4- 1980ص73
41 / ينظر عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 15.
42 / نفسه ص 15.
43 / ابن وهب – البرهان- ص 81-82.
44 / ينظر نفسه 82.
45 / نفسه ص 83.
46 / نفسه ص 84.
47 / الجاحظ - البيان والتبين- ج 1/ ص81
48 / عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 12.
49 / نفسه ص 16.
50 / نفسه ص 16.
51 / ينظر نفسه ص 12.
52 / محمد كشاش – اللغة والحواس-المكتبة العصرية للطباعة والنشر (بيروت) ط1 -2001ص21
53 / عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 17.
54 / نفسه ص 18